الفصل الثالث

أدبنا والحياة
في ظل الحكم الفردي

حصر النقاد اهتمامهم في بلاط الحكام ، فاعتبروا شعراء الأمراء هم أمراء الشعر ، وجعلوا تفوق الشاعر رهنًا ببراعته في المدح ، ولو لم يعبر عن معاناة وجدانية صادقة .
(ابن سلام : طبقات الشعراء)

واستحسنوا الكذب في الشعر ، وجعلوا نفاق شاعر يمدح ثم يهجو مَن مدح ، دليل براعة وآية اقتدار (قدامة : نقد الشعر)

وقرروا أن الطمع أول دواعي الشعر .
(ابن قتيبة : الشعر والشعراء)

ويقول تراثنا : إن الحياة لم تكن سياسة فحسب ، وشعراء القصور لا يمثلون إلا بيئة خاصة ، لها أوضاعها وقيمها وموازينها .

أوشك القرن الأول الهجرى أن ينتصف ، وقد آن لفترة الخضرمة أن تنتهى بمضىّ أولئك الذين عاشوا فى الجاهلية مدة طالت أو قصرت ، اللهم إلا قلة منهم بَعُد عهدها بالجاهلية وأمضت فى الإسلام ما يقرب من نصف قرن .

وكان المنتظر ، وقد جاء جيل نشأ وتربى وعاش فى الإسلام ، أن تسيطر القيم والمثل الإسلامية على الحياة الأدبية نتاجًا ونقداً ؛ وأن تتضاءل روح الجاهلية لكى تفسح المجال لسيطرة الروح الإسلامية وقِيَمها .

لكن حادثًا خطيراً تدخل ، كان له أثره القوى فى توجيه الأدب مع تيار جديد ، غالب مسيطر ، بلغ من نفوذه أن لَفَّ المؤرخين والنقاد ، فلم يعودوا يلتفتون إلى سواه أو يملكون الإفلات من جاذبيته . .

ومن ذلك الحين ، بدأ تاريخ العرب والإسلام يسير مع هذا التيار ، سواء فى التاريخ العام ، أو التاريخ الأدبى .

من ذلك الحين ، تتابع المؤرخون لحياة العرب السياسية والأدبية ، يأخذون اتجاهًا معينًا لا يحيدون منه ، كأنما شُدُّوا إليه بوثاق .

وتلقينا أقوالهم ميراثًا مفروضًا ، دون أن نلتفت إلى ما شابها من ضيق النظرة ، وقصور التناول ، أو عقم الفكر والوجدان .

وذلك الحادث ، هو انتقال الحكم إلى بنى أمية . .

به بدأ التاريخ العام ، يدور فى فلك الحكام وحدهم ، ويسير فى ركاب السياسة ، غير معنىٍّ بالحياة الاجتماعية للشعب .

وعلى نهجه سار التاريخ الأدبى ، فكان فى جملته محصوراً فى نطاق السياسة ، مسايراً لأحداث القصر ، لا يكاد يتجاوز جدرانه إلا إلى ما يتصل به من قريب أو بعيد .

وقد التفت بعض المفكرين إلى خطأ الاهتمام بالتاريخ السياسى وحده ، يدور فى فلك الحكام وحاشيتهم من الوزراء والقواد ، بمعزل عن حياة الشعوب والمجتمعات . والتفت بعض أساتذتنا إلى مثل هذا الخطأ فى تاريخنا الأدبى الذى

دار مع السياسة حيثما دارت ، ومال مع ريحها أنّى مالت ، فكان شعراء البلاط هم موضع عنايته ، وكانت النماذج التى يختمها القصر بخاتمه هى الرائجة المعتمدة .

وما كان تصحيح منهج الدرس الأدبى فى الجامعة ، وتحريره من ضيق النظرة السياسية ، إلا إنكاراً صريحاً لمسلك الذين شدّوا الأدب إلى عربة السياسة وحدها . وهذه قضية تم الفصل فيها ، وقال المنهج الجامعى فيها كلمته[1] .

إنما أريد اليوم لألفت إلى ما يتصل بالقيم الأدبية التى رسّخها الزمن ، وكانت فى جملتها نابعة من مورد السياسة ، صادرة عن تقاليد القصر ، معبرة عن وجهة نظر الذين لم يكونوا يتصورون الحياة دائرة إلا فى فلك الحكام والأمراء .

* * *

إن ولاية « معاوية » للحكم ، لم تكن مجرد حادث سياسى ، تنتقل فيه الخلافة من بيت إلى بيت ، وإنما كانت فى الواقع ، تحولاً خطيراً فى الحياة العامة للمجتمع الإسلامى .

والخلافة قد تولاها « أبو بكر » رضى الله عنه ، وهو من بنى تيم بن مرة ، ثم تولاها « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، وهو من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وتولاها من بعده « عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية » رضى الله عنه وهو من بنى عبد شمس ، ثم آلت إلى « على بن أبى طالب » كرّم الله وجهه ، وهو مطلبى هاشمى ، فلم يُحدث هذا الانتقال مثلَ ما أحدثه تولى « معاوية » للحكم من تحول خطير .

ونقول مع ذلك ، إن هذا التحول قد سبقته بوادر يعرفها مؤرخو الإسلام فى ولاية « عثمان بن عفان » الأموى العبشمى ، وربما مضوا بها إلى قديم بعيد ، منذ بدأت المنافسة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس ، على مراكز النفوذ التى كانت لأبيهم « عبد مناف بن قصى » تلك المنافسة التى لعبت دوراً ذا خطر فى تاريخ العرب ، قبيل الإسلام ، ثم فى الصراع الطويل بين المشركين والمصطفى ، ألقتْ فيه قريش بكل ثقلها ، كراهة أن يستأثر بنو هاشم بهذا المجد من دونهم . وكان الشعر

---

(١) الأستاذ أمين الخولى : الأدب المصرى — ط دار المعارف بالقاهرة .

يتابع هذه البوادر ويسجلها ، وينفعل بها ويؤثر فيها ، على ما يشهد تراثنا الأدبى الذى عنى بجمعه قدامى المؤرخين وكُتَّاب السيرة ، كالطبرى وابن هشام . . .

ثم كان « معاوية » هو الذى وصل بهذه البوادر إلى مرحلة حاسمة فى تاريخ العرب والإسلام ، لا لأن الخلافة صارت إلى الأمويين . فقد سبقه إلى ذلك « عثمان بن عفان » وهو من صميم البيت الأموى . ولكن لأن " معاوية " صيَّرها ملكًا وراثيًّا عضوداً لم يعرفه المسلمون من قبل .

ولأول مرة ، بدأ فى الإسلام نظام الحكم الفردى المطلق فى ظل الملكية الوراثية ، وظهر معه المجتمع الطبقى أثراً لتدفق الثروات فى خزائن الحكام والولاة ، ونتيجة لوضع اجتماعى يفرض على « الموالى » الرق والجزية . . .

وكما احتاج نظام القبيلة إلى الشاعر يؤيده ويحميه ، واحتاجت الأمة الإسلامية من عصر المبعث إلى تعبئة وجدانية يتولاها الشعراء . احتاج الوضع الملكى الجديد إلى الشعر يؤيده ويناضل عنه ويُمكِّن له من نفوس الجماهير . .

وكان بيت المال فى أيدى الحُكَّام وولاتهم وعمالهم ، ومعه سيف السلطان ، فراحوا ينتزعون التأييد ، إما بإغراء المال أو برهبة السلطان .

روى « المبرد » فى الكامل : « أن معاوية لما نصب يزيدَ لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء . فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ؛ ثم رجع إلى معاوية فقال : " يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تولِّ هذا أمورَ المسلمين لأضعتها " والأحنف بين قيس جالس ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ فقال : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت . قال معاوية : جزاك الله على الطاعة خيراً . وأمر له بألوف . فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر ، إنى لأعلم أن شرَّ مَن خلق الله ، هذا وابنُه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال . فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعتَ »[1] .

ومن يومها ، بدا أن « القصر » يحتكم فى سير الحياة ويمسك بأزمَّتها ، ويسلط

(١) الكامل : ص ٣٠ طبع الخيرية .

بريق خزائنه على الشعراء فيعشى أبصارنفر منهم ، ويلوّح لآخرين بسيف نقمته ، فيخضعون لإرادته إيثاراً للسلامة والعافية .

بدا كأن « قصر الحاكم » هو الدنيا . . .

أو هذا هو ما يمثله لنا التاريخ الأدبى لذلك العهد : فمجد الشاعر مرتهن بالوصول إلى باب السلطان ، ومكانته الفنية يحددها القصر ، وحظوته برضى الأمير مضمونة ، طالما قصر وجدانه على تأييده والتغنى بسجاياه :

« نصيب » الشاعر ، لم يكد يطمئن إلى شاعريته ، حتى حمل بضاعته وسار إلى « عبد العزيز بن مروان : والى مصر لأخيه عبد الملك » يعرضها عليه ، واثقاً أن مصيره مرتهن بقبول الأمير لهذه البضاعة .

و « جرير » لم يكد يبلغ من « الحجاج » غاية الرضى بما أفرغه عليه من مدائح ، حتى طمح إلى القصر ، والتمس من « الحجاج » أن يكون وسيلته إلى « عبد الملك » فوفد الحجاج إلى عبد الملك « وفادته التى لم يفد إليه غيرها . فأهدى إليه جريرا ، فدخل عليه فأذن له فى النشيد »[1] .

و « الأخطل ، التغلبى » ما كان يطمع فى أن يجد مكاناً فى المجتمع الإسلامى ، لولا أن اتصلت أسبابه ببنى أمية ، وصار نديماً لخلفائهم وشاعراً لبلاطهم[2] .

وفتحت خزائن بيت المال على سعتها للشعراء الدعاة :

« جرير » لما وصل إلى عبد الملك وأنشده مدحته الحائية :

أتصحـــو أم فؤادك غير صاح ... عشيةَ همَّ صحبُـــك بالرواح

فلما وصل فيها إلى قوله :

تعـــزَّتْ أمُّ حـــزرةَ ثم قالت ... رأيتُ الموردين ذوى لقـــاحِ
تُعلـــل وهى ســـاغبة بنيهـــا ... بأنفـــاس من الشبم القـــراح
ســـأمتاح البحـــورَ فجنِّبينى ... أذاةَ اللوم وانتظرى امتيـــاحى
ثقى بالله ليس لـــه شريـــك ... ومن عنـــد الخليفـــة بالنجاح
أغثنى يا فـــداك أبى وأمى ... بسيبٍ منك إنك ذو ارتيـــاح

(١) طبقات ابن سلام: ١٠٠ ط بريل .
(٢) الأغانى : ٨/٣٠٧ .

سأله عبد الملك : فهل ترويها مائة ؟

قال جرير : وهل إليها من سبيل جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين ؟

فأمر له عبد الملك بمائة ، وثمانية من الرعاء ! فذكرها جرير فى مدحه يزيد بن عبد الملك وهو خليفة فقال : (١)

أعطوا هنيـــدة يحدوها ثمانيـــة ما فى عطائهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

وقدم « كثير » على يزيد بن عبد الملك وقد مدحه بقصائد جياد مشهورة ، فأعجب بهن يزيد وقال لكثير : احتكم !

فسأل كثير : وقد جعلتَ ذلك إلىَّ ؟

أجاب يزيد : نعم !

قال الشاعر : مائة ألف !

فتساءل الخليفة : ويحك ، مائة ألف ؟ !

أجاب : على جودِ أمير المؤمنين أبغى أم على بيت المال ؟

قال يزيد : « ما بى استكثارُها ، ولكنى أكره أن يقول الناس : أعطى شاعراً مائة ألف ! » . . ودفعها إليه(٢) .

وكانت المنافسة بين شعراء البلاط ، على القرب والرضى لا تهدأ ولا تفتر : روى « أبو الفرج الأصبهانى » أن « عبد الملك » أنشد يوماً قول « كُثيِّر » فى مدحه بما كان من انتصاره على من نازعوا بنى أمية على الخلافة والملك :

فما تركوها عنـــوة عن مـــودة ولـــكنْ بجدٍّ المشرفى استقالها !

فأعجب به ، فقال له « الأخطل » : ما قلتُ لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه :

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالىَ مُلكٍ لاطريفٍ ولا غَصْبِ!

جعلتُه لك حقًّا ، وجعلك أخذتَه غصْبا . قال عبد الملك : صدقتَ(٣) .

---

(١) طبقات ابن سلام : ١٠١ ط أوربا . والشعر والشعراء : ٤٦٨/١ معارف .
وانظر القصيدة فى ديوان جرير ، ٩٦ : ٩٨ الصاوى .

(٢) طبقات ابن سلام : ١٣٣ ط بريل .

(٣) الأغانى : ٣٨٨/٨ . ونقد الشعر لقدامة : ٣٦ .

ورُوِى كذلك من أخبار « الأخطل » أنه قال ذات يوم لعبد الملك بن مروان :

« يا أمير المؤمنين ، زعم ابن المراغة — يعنى جريراً — أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة أيام ، وقد أقمت فى مدحتك :

* خَفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا *

سنة . فما بلغت كل ما أردت » فقال عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل . فمضى ينشدها وعبد الملك يتطاول لها ، حتى إذا فرغ من إنشاده ، قال له الأمير : « ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ »

قال : « أكتفى بقول أمير المؤمنين ؟ »[1] .

ومنطق الخبر أن التنافس على مدح الأمير كان على أشده ، وأن الأمير كان بحيث يصدر مرسومًا ملكيًّا بإمارة شاعر . ويُسير المرسوم فى الآفاق !

* * *

وكما كان قصر الحاكم يتصرف فى منازل شعرائه ومراتبهم الشعرية ، ويوزع عليهم حظوظهم من الشهرة والرزق ، كان كذلك يتصرف فى شعرهم ويحدد لهم مجال القول . وقصة الفرزدق ونصيب مع « سليمان بن عبد الملك » ذائعة معروفة : دخل « نصيب » على سليمان وعنده الفرزدق . فاستنشد الخليفة الفرزدقَ وهو يتوقع أنه سينشده مدحًا . لكن الفرزدق غفل عن المطلوب منه ، فأنشد مفتخراً بقومه :

وركبٍ كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترةً من جذبها بالعصائب
سَروا يخبطون الريح وهى تلفهم ... إلى شُعَبِ الأكوار من كل جانب
إذا آنسوا ناراً يقولون ليتهـا ... وقد خصرت أيديهمُ ، نار غالب

قالوا[2] : « فأعرض سليمان كالمغضب . فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ألا أنشدك فى رَوِيِّها ما لعله لا يتضع عنها ؟ فأذن له مولاه فأنشد :

أقول لركبٍ صادرين لقيتهُم ... قِفَا ذاتَ أوشال ، ومولاك قاربُ
قفـوا حـبروني عن سليمان إنني ... لمعروفه من أهل "وَدّان" طالبُ
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهـله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

---

(١) الأغانى : ٨/٢٨٧ .
(٢) المبرد : الكامل (٢/٢١٧) رغبة الآمل . مع (الشعر والشعراء : ١/١١ ؛ معارف)

فتهللت أسارير سليمان وقال : يا غلام ، أعط نصيبًا خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه »[١] .

وما كان « نصيب » فى مدحه ، أشعر من « الفرزدق » فى فخره ، ولكنها مقاييس السياسة ، تحدد للشاعر مجال القول .

وبمثل هذا غضب « الحجاج بن يوسف الثقفى » على « يزيد بن الحكم » وكان الحجاج قد عهد له على فارس ، فأتاه يودعه . فقال له الحجاج : أنشدنى — وقدّر أنه يمدحه — فأنشده مفتخراً بأبيه :

وأبى الذى سلب ابنَ كسرى رايةً بيضاء تخفق كالعُقابِ الطائرِ

فاسترد الحجاج العهد منه . وقال لحاجبه : قل له : أورثك أبوك مثل هذا ؟

وإذا كان « يزيد بن الحكم » قد غضب وقال يرد على الحجاج[٢] :

وورثتَ جدّى : مجدَه وفعـــاله وورثتَ جدّكَ أعنزاً بالطائف

فإن ذلك لا يمنع دلالة الخبر على أن الولاة كانوا يتأثرون بأمراء القصر الأموى ، ويريدون أن يفرضوا على الشاعر مجال القول .

* * *

ومن ذلك أيضًا ما رواه ابن سلام :

« أنشد كُثيّر عبدَ الملك مدحته التى يقول فيها :

على ابن أبى العاصى دلاصٌ حصينة أجاد المُسَدّى سردَها وأذالَها

يؤود ضعيفَ القوم حملُ قتيرها ويستضلع القرم الأشمُّ احتمالها

فقال له عبد الملك : قولُ الأعشى لقيس بن معد يكرب ، أحبُّ إلىّ من قولك ، ألا قلتَ كما قال الأعشى :

وإذا تجىء كتيبـــةٌ ملمومة خرساءُ يَخشى الذائدون نهالهَا

كنتَ المقدّمَ غيرَ لابسِ جنةٍ بالسيف تضرب معلمًا أبطالهَا

(١ و ٢) ابن رشيق : العمدة — ١/٤٤ .

— وانظر قصة سليمان مع الفرزدق فى (الكامل للمبرد : ٢/١٢٧ رغبة ، والشعر والشعراء : ١/٤١١)

كلا . . لا يجدى شيء من هذا ومثله ، مع ما ترى من إصرار القوم على أن الحضارة حين صارت إلينا قيادتها فى العصر الوسيط ، هوت بالفكر الإنسانى إلى تهوش وانحلال ، وتنكبت كل طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب العلمى ! !

* * *

ومع صوت « إسماعيل مظهر ، تلميذ يعقوب صروف » ارتفع صوت « سلامة موسى » الذى لم ير فى ماضينا العربى خيراً قط ، ولا وجد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بذرة تصلح للبقاء ، بل إنه حين نشر كتابه (هؤلاء علّمونى) لم يسمح لأى مفكر عربى أن يأخذ مكاناً ولو فى ذيل الموكب الجليل لمعلمى سلامة موسى : تولستوى وماركس وبافلوف ودستويفسكى ، وفرويد وأدلر ويونج وهافلوك أليس ، إلى آخر القائمة الأجنبية التى ليس فيها اسم عربى واحد .

وكنا نسمع هذه الأصوات فى مطلع صبانا ، ومنا من نشأ — مثلى — فى بيئة دينية محافظة ، وَصلتْه بأمجـاد الحضـارة الإسلامية وروائع التراث الفكرى والأدبى للعرب ، واستشرف لآفاق المنهج الإسلامى للمعرفة ، ووعى من آيات كتاب ديننا قيما إنسانية ومثلاً عليا لا تطمح البشرية إلى أعز منها ، وحفظ كلمات كباراً لأئمة سلفوا ، قررت كرامة الإنسان وشرف العلم وحرية الكلمة ؛ من قبل أن تسمع الدنيا بهؤلاء الفرنجة الذين علموا السائرين غربا !

ومنا من لم يتح له شىء من ذلك قط ، أثراً لنشأته فى بيئة متفرنجة مزهوة بعصريتها مفتونة بجديدها المحدث ، فهى تسلم عقلها وضميرها إلى رسُل الغرب ، وترى فيهم أنبياء العصر !

* * *

وكان من الممكن أن يتيح لنا وعيُنا القومى هضمَ الثقافات الغربية دون اتخاذها أصلاً ننسى فيه أصلنا . كان من الممكن أن نسعى إلى بناء حياتنا الجديدة فوق أرضنا ، مع إخصابها بمستوردٍ من جديد الفكر والفن . .

لكن الذى حدث فعلاً هو أن الكثرة من أصحاب القديم جمدت على قديمها فى رجعية كافرة بالتطور ، ففقدت كل صلة بالعصر والحياة . كما أن الكثرة من

« فأتاه فأنشده :

هـــل تعرف الـــدارَ لأمِّ الغمر دعْ ذا، وحَبِّرْ مِدحةً فى نصرِ

فقال نصر : لا ذلك ولا هذا . . ولكن بين الأمرين » !

وحين اقتضت إرادة القصر لفترة مؤقتة وفى ظرف خاص ، أن ترفض شعر المدح ، وتُبعد عن مجلس الخليفة « عمر بن عبد العزيز » الشعراءَ الذين طالما فتحت لهم الخزائن والأبواب ، راحوا يدورن مع الريح ، ويلتمسون الوسيلة إلى الخليفة الورع التقى ، ويستشفعون بجلسائه من الزهاد ، ليفتح لهم بابه الموصد ؛ فيقول « جرير » لعون بن عبيد الله متوسلا : (١)

يا أيها الرجـــل المُرخى عمامتَه هذا زمانُك ؛ إنى قد مضى زمنى

أبلـــغ خليفتنـــا إن كنت لاقيَه أنى لدى الباب كالمصفود فى قرَنِ

لا تنس حاجتنـــا لاقيتَ مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

وراج شعر الزهد والتدين فى خلافة « عمر بن عبد العزيز » لأن هذا الشعر هو الصنف المرغوب فى القصر . . .

وظهرت طبقة من الشعراء ، تجالس الخليفة وتنشده ما يرضيه ؛ منهم شاعر اسمه « سابق البربرى » ما كنا لنسمع به لولا أنه وصل إلى مجلس الخليفة ، وأنشده مثل هذه الأبيات (٢) :

فكم من صحيح بات للموت آمنا أتته المنايا بغتةً بعد ما هجعْ

فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتـــة فراراً ، ولا منه بقوّته امتنـــع

فأصبح تبـــكيه النساء مقنعـــاً ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع

وقُرِّبَ من لحـــد فصار مقيـــلَه وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

فلا يترك المـــوتُ الغنىَّ لمـــاله ولا معدماً فى المال ذا حاجة يدع

و « عبيد الله بن عبد الله » الذى كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول (٣) :

باسم الذى أنزلتْ من عنده السورُ والحمدُ لله ؛ أما بعد يا عمرُ !

---

(١) ديوان جرير : شرح الصاوى ص ٥٥٨ .
(٢) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء ٥/٣١٨ ط السعادة ١٩٣٢ .
(٣) الحلية : ٢/١٨٨ .

إن كنت تعلم ما تأتى وما تـــذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذرُ
واصبر على القدر المحتوم وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهى القدر
فما صفا لامرئ عيشٌ يُسرّ به ... إلا سيتبع يوما صفوَه الكدر

* * *

أما الشعراء الذين طالما طرب خلفاء بنى أمية – قبل عمر – على مدائحهم ، فما كان يعيبهم ، وقد ألفوا نفاق القول وتزييف الشعور . أن يقولوا للخليفة التقى ما يرضيه ، وأن يغنوه بالنغمة التى تطربه . ويعزفوا له على الوتر الذى يؤثر فيه !

قال « كُثير » يمدح الخليفة عمر بن عبد العزيز :

وصدقتَ بالفعل المقالَ مع الذى ... أتيت فأمسى راضيا كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لبسَ الهلوكِ ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومعصم
وتومض أحيانا بعين مريضةٍ ... وتبسم عن مثلِ الجُمان المنظم
فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنمـــا ... سقتك مَدُوفا من سمامٍ وعلقم
تركتَ الذى يفنى وإن كان مونقا ... وآثرتَ ما يبقى برأيٍ مصمم
وأضررت بالفانى وشمّرت للذى ... أمامك فى يومٍ من الشر مظلم !

إلى هذا المدى كان قصر الحاكم يحتكم فى تحديد صنف البضاعة الشعرية المطلوبة ، فيستجيب له من أصحابها من يستجيب !

وفى مثل تلك البيئة . يروج النفاق والكذب والزيف ، ويدور الشاعر مع الريح : « فابن قيس الرقيات » مثلاً . يلازم مصعب بن الزبير أيام سلطانه بالعراق ، ويرفع عقيرته منشداً :

إنمـــا مصعب شهاب من اللـــــهِ تجلت عن وجهه الظلمـــاءُ
مُلـــكُه ملك قوة ليس فيـــه ... جـــبروت ، ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمـــور وقد أفـ ... ـلح من كان همَّه الاتقـــاءُ

فلما قُتِل « مصعب » وقَضَى الأمويون على ثورة الزبيريين : استدار الشاعر نحو القصر الأموى . ووقف بباب « عبد الملك بن مروان » يمدحه . مُعرِّضاً بآل الزبير ، ممدوحيه بالأمس القريب [١] :

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٥٣٩ معارف .

ما نقمـــوا من بنى أميـــة إلاّ أنهم يحلمون إن غضبـــوا
وأنهم معـــدن الملـــوك فلا تصلحُ إلا عليهم العربُ !
إن الفنيق الذى أبوه أبو الـــ معاصى ، عليـــه الوقارُ والحجب
يأتلقُ التـــاجُ فوق مفرقـــه على جبينٍ كأنه الذهب !

و « الراعى : عبيد بن حصين النميرى » وفد على عبد الملك بن مروان ، بعد هزيمة الزبيرية — وكان عبد الملك ثقيل النفس عليه — فأنشده متزلفا : (١)

إنى حلفت على يمينٍ بَرّةٍ لا أكذب اليومَ الخليفةَ قِيلا
ما إن أتيت « أبا خبيبٍ » وافداً يوماً أردت لبغيتى تبـــديـــلا
ولا أتيت « نجيدةَ بنَ عويمرٍ » أبغى الهدى فيزيدنى تضليـــلا
أزمـــان قومى والجماعة كالذى لزم الرحـــالةَ أن تميل مميلا
فادفـــع مظالم عيَّلت أبنـــاءنا عنـــا . وأنقـــذ شلونا المفلولا

فلما لم يجد من عبد الملك إقبالا ، عاد إليه من قابل مستعطفاً مستغيثاً (٢) .

و « أيمن بن خريم » لزم « عبد العزيز بن مروان » بمصر يمدحه ويشيد بفضائله الفريدة ومآثره الغراء . ويؤيد طموحه إلى الخلافة بعد أخيه « عبد الملك » وكان ينافسه عليها « بشر » أخوه ، والوليد بن عبد الملك . فلما وفد « نصيب » إلى قصر عبد العزيز بمصر وأنشده ، سأل الوالى شاعره « أيمن » : كم تقدر ثمناً للعبد ؟ أجاب « أيمن » مغيظاً : ثلاثون ديناراً : قال « عبد العزيز » : وإنه ليقول الشعر ! فرفع « أيمن » السعر إلى مائة ولم يُخفِ ضجره . فراح «عبد العزيز» يمن عليه ، أن تركه يؤاكله ويشاربه على ما به من وَضحٍ — برص — . وأيقن « أيمن » أن أسهمه هبطت ، وأن « الوالى » معجب بنصيب ، حريص على جديدٍ من النغم ؛ بعد أن استفرغ « أيمنُ » فيه مدائحه . . .

وخرج « أيمن » من القصر مغضباً ، وهجر مصر إلى العراق ، يعرض بضاعته

---

(١) ابن سلام : الطبقات ١١٨ .

و « أبو خبيب » كنيه عبد الله بن الزبير ، و « نجيدة بن عويمر » تصغير تحقير ، لنجدة بن عامر من رؤساء الخوارج . .

(٢) المرجع نفسه .

على « بشر بن مروان » منافس أخيه عبد العزيز ، وقد حدد الشاعر ثمن البضاعة فقال[١]:

ولو أعطاك بِشرٌ ألفَ ألف ... رأى حقًّا عليه أن يزيدا
وأعقب مدحتى سرجا خلنجيًّا ... وأبيض جوزجانيًّا عقوداً
فإنا قد وجدنا أمَّ بشرٍ ... كأمِّ الأسْدِ مذكاراً ولوداً !

وكذلك حدّد « نصيبٌ » أجره ؛ فجعل الثناء على قدر العطاء ! فقال لمولاه عبد العزيز :

لعبدِ العزيز على قومه ... وغيرهمُ منَنٌ غامره
فبابُك ألينُ أبوابهم ... ودارك مأهولة عامره
وكلبُك آنَسُ بالمعتفين ... من الأمِّ بابنتها الزائره
وكفُّك حين ترى السائلي ... ن أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاءُ ومنا الثناءُ ... بكل مُحبَّرةٍ سائره !

وقد جاء بها « ابن قتيبة » بين مختاراته فى المدح[٢] .

وهان على الشعراء أن يدوروا بمعازفهم يطربون الحكام ، بل هان على « الفرزدق » — الذى عدُّوه أشعرَ طبقته إذا افتخر — أن يجعل نفسه مضحكًا للسيد الأمير . ويعلن هذا على ملأ من القوم .

يروون أن « سليمان بن عبد الملك » أتى بأسرى من الروم وعنده الفرزدق ، فقال له : قم فاضرب أعناق هؤلاء . فاستعفاه فلم يُعفه ودفع إليه سيفًا كليلا . فقام الفرزدق فضرب به عنق رجل منهم فنبا السيف ، فضحك سليمان ومن حوله . فقال الفرزدق[٣] :

ما يعجب الناس أن **أضحكتُ سيِّدَهم** ... خليفة الله يُستسقَى به المطرُ ؟

* * *

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ١١٤ ؛ ط ليدن .
(٢) الشعر والشعراء : ١/٣٧٤ .
(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٤٥٠ .

ونجم عن هذا الوضع شر كثير ، أصاب الحياةَ الأدبية نتاجًا ونقداً ، ثم لم تستطع أن تنجو منه بعد ذلك :

فلقد تركز الاهتمام حول شعراء القصر الأموى ، مع أن الحياة لم تكن بلاطًا فحسب ، كما أن الحكم لم يَصْفُ للأمويين دون معارضة عنيفة حادة من **العلويين ، والزبيريين ، والخوارج** . وكان الصراع بينها وبين هذه الأحزاب يزلزل استقرارها ويهدد سلامتها . ولقد ظلت الزبيرية تؤرقها لمدى ثلاثين عامًا ، استأثرت فيها بالأمر فى الحجاز والعراق ! ولم يهدأ للأموية بال طول حكمها من ناحية الشيعة ، والخوارج ، وخاضت معارك دامية لتستريح منهم ، فما زادتهم هذه المعارك إلا إصراراً عنيداً على المقاومة والمعارضة .

والشعر ، حتما ، قد اشترك فى ذلك الصراع ، وزاده حدة وضراوة .

وأخطر من هذا كله ، أن **الموالى** كانوا هناك ؛ يتململون تمرداً على وضعهم ؛ ويئنون من محنة النبذ ، ومن نظام الولاء الذى جعلهم رقيقًا فى دولة ، دينُها الإسلام الذى لا يعترف لعربى بفضل على أعجمى إلا بالتقوى ، وكتابها القرآن الكريم الذى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وإذا كان « سحيم ، عبد بنى الحسحاس » قد فاضت نفسه بالمرارة ، وهو يعيش فى ظل الخليفة العادل « عمر بن الخطاب » فقال فى قصيدته الياثية التى أنشدها بين يدى عمر :

عميرةَ ودِّعْ إن تجهزتَ غاديا ... كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

. . . . . .

أشارت بمدراها وقالت لتربِها ... **أعبدُ** بنى الحساس يُزجى القوافيا
رأت قتباً رثًّا وسحقَ عباءة ... **وأسودَ** ، مما يملك الناسُ عاريًا
يُرجِّلن أقواما ويتركن لمتّى ... وذاك **هوان** ظاهر قد بدا ليا
فلو كنتُ وَرْداً لونُه لعشِقتنى ... ولكن ربى **شانى بسواديا**

أقول إذا كان شعر « سحيم » قد نضح بالمرارة فى عهد أمير المؤمنين عمر

ابن الخطاب . فكيف بالموالى من الفرس الذين أسلموا وفُرض عليهم الولاء وخضعوا لاضطهاد مرير من الدولة الأموية ؟

وهم لم يكونوا عبيداً أرقاء كسحيم ونصيب ، ولا كانوا من أصل مغمور ومنبت وضيع . فكان شعرهم ، لو وصل إلينا ، جديراً بأن يعبر عن إنكار وضعهم المنبوذ . لكن التاريخ الأدبى لم يحفظ منه إلا القلة النادرة . وقد يُفسَّر هذا بحداثة عهدهم بالعربية ، وقد يفسر أيضًا بالكبت الذى فرضه عليهم اضطهادُ الأموية للموالى ، لكنى لا أمنع أن يكون منهم من استطاع أن يُنفس بالشعر عن وجدانه المشحون بالتمرد والثورة ، ثم ضاع هذا الشعر فيما ضاع من تراث أدبى ، لم تكن السياسة لتجيزه . . .

والقليل الذى وصل إلينا منه ، يعبر عن احتجاج على تفاخر العرب على الفرس ، وللفرس ماضيهم العريق وتراثهم الحضارى التليد ، أو كما قال « إسماعيل بن يسار النسائى » :

رُبَّ خـــالٍ مُتَوَّجٍ لى وعمٍّ ماجدٍ ، مجتدى ، كريمِ النصابِ
إنمـــا سُمِّى الفوارسُ بالفـــر س ، مضاهاةَ رفعةِ الأنساب

ضاع شعر الموالى أو صودِر ، ولم يضع شعر « نصيب » لأنه كان من شعراء البلاط الذين استأثروا بالشهرة ، واشتهر معهم من شعراء الحزب الزبيرى « عبيد الله ابن قيس الرقيات » لأنه تنكر لماضيه وتعلق بركاب عبد الملك بن مروان قاتل مصعب . كما اشتهر من شعراء الشيعة ، « الكميت الأسدى » لأنه طوى هاشمياته وأقبل على أمراء القصر الأموى ، يمحو بمدائحه فيهم هاشمياته فى الإمام علىٍّ وبنيه . . . ولو لم تتصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر الأموى ، لكانوا مظنة أن يوضعوا فى منطقة الظل .

* * *

وما كانت قصور الحكام والأمراء والولاة ، من الأمويين ، إلا بيئة واحدة ، إلى جانبها بيئات أخرى تعرفها الحياة للعرب والمسلمين ، فى الشام والحجاز والعراق وما وراء النهر ومصر وإفريقية : بيئات شهدت نشاطًا أدبيًا من نوع آخر غير ذاك النوع الرائج فى القصر ، وكانت لها قيم ومقاييس غير تلك التى يقررها ساسة الدولة ، وكانت

هناك مؤثرات أخرى غير السياسة ، منها وافد طارئ ، ومنها محلى أصيل . تعمل عملها فى الحياة ، وتتفاعل مع الأدب مؤثرة ومتأثرة .

كانت هناك بلا شك بيئة أخرى فى العراق تتلقى روافد مما وراء النهر وتفد عليها تيارات عنيفة من الأعاجم ، تلتقى مع التيار العربى الوافد من الجزيرة بهجرة العرب إلى وادى دجلة والفرات .

وكانت هناك بلا شك أيضًا بيئة أخرى فى مكة حول الحرم الأقدس ، تعيش على ذكريات أمجاد عريقة موغلة فى القدم ، وفى المدينة ، دار الهجرة ، حول مسجد المصطفى ومثواه ، تعتز بمجد لها دينى ، وتغذيها ذكريات الجهاد المشهود ، وتضيئها وجوه كريمة ، من آل النبى صلى الله عليه وسلم ، والبقية الصالحة من صحابته ...

وفى صميم نجد كانت هنالك بيئة غير هذه وتلك . . بيئة بعيدة إلى حد مّا عن التيارات الوافدة والطارئة ، تعيش على قيم موروثة نابعة من قديمها الجاهلى ، وتمارس الحياة حريصة ما استطاعت على تقاليدها ، محافظة على أعرافها ، مدافعة عن ميراثها وأوضاعها ضد أى غزو يأتى من وراء أسوارها .

وفى الشمال الإفريقى كانت هناك بيئة حديثة عهد بالعربية والإسلام ، قد تخلصت من آثار الرومان واليونان والوندال ، وبقى لها ميراثها الأصيل الذى صمد للغزو الأجنبى .

وفى وادى النيل ، كانت هناك بيئة لها ظروفها الاجتماعية وميراثها الحضارى ومزاجها الخاص . يلتقى فيها أهلها بالقبائل العربية التى وفدت إلى الأرض الطيبة ، فى هجرات جماعية أعقبت الفتح ، وما لبثت أن استقرت هناك وامتزجت بأبناء البلد.

وكانت ، وكانت . . فى هذه الدنيا الواسعة العريضة ، التى يستحيل أن تحصرها جدران القصر الأموى فى دمشق . وقصر عتبة بن أبى سفيان أو عبد العزيز بن مروان فى مصر ، وقصر أخيه بشر . أو زياد بن أبيه أو الحجاج فى العراق ، ونصر بن سيّار فى خراسان . . . .

لكن عيون المؤرخين والنقاد شُدَّت إلى هذه القصور ، فلم تكد تعرف من أمر الحياة الأدبية غير البضاعة الواردة منها الرائجة فيها ، ولم تكد تحتفل بغير الشعراء الذين يبصمهم البلاط بخاتمه !

أشهر النصوص الأدبية التى عرفناها من دمشق ، نقائض جرير والأخطل والفرزدق ، ومدائح شعراء الأمراء من أمثال كُثيِّر عزة ، ونصيب ، وابن قيس الرقيات .

وأشهر النصوص التى اختاروها من أدب العراق ، خطبة زياد بن أبيه أو خطب الحجاج ، ومدائح الشعراء فيه وفى بشر بن مروان .

وأشهر النصوص التى اهتموا بها من أدب مصر : خطب عتبة بن أبى سفيان واليها لأخيه معاوية . ومدائح الشعراء الوافدين على قصر عبد العزيز بن مروان . مثل : نصيب ، وأيمن بن خريم . وابن قيس الرقيات !

* * *

والذين لفتهم ازدهارُ فن الغزل فى الحجاز بوجه خاص ، شدُّوه إلى عجلة السياسة وربطوه بأسبابها ، حين جعلوا ازدهاره نتيجة لسياسة أموية عزلت أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام السياسة وشئون الدولة ، وحبستهم هنالك فى فراغ يفسده الشباب ، وتفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون فى سخاء ! أرادت السياسة بذلك — فيما قالوا — أن تسلمهم إلى الفراغ والشباب والجدة . وأرادت معه أن تقضى على ما لعاصمتى الحجاز ، مكة والمدينة من نفوذ دينى كبير وسلطان روحى نافذ . حتى جاز للأستاذ المحقق «الشيخ عبد الله العلايلى» أن يذهب إلى أن الأمويين قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين — من بينهم عمر بن ربيعة — لأجل أن يمسحوا عاصمتى الدين «مكة والمدينة» بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية . وجاز للأستاذ العميد الدكتور طه حسين ، أن يقول : إن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التى أتيحت لهم حين حُفِظ لهم شعرُ «عمر بن أبى ربيعة» كله أو أكثره، وهو الشاعر الذى يؤرخ لنا عصره[1] .

على هذا النحو . ربطوا ازدهار الغزل بالسياسة .

ولولا أن الخوارج خاضوا معركة السياسة ، لتاه تراثهم الأدبى فى الغمار وغُيِّبَ عنا .

أما النشاط الأدبى فى مصر والأقطار الإسلامية المتعربة ، فلم نعرف منه إلا ما دار فى فلك الولاة . . .

وهكذا توارى نشاط البيئات غير السياسية ، الفكرى والاجتماعى والأدبى .

---

١) عالجت هذه القضية بمزيد توسع وبيان، فى كتابى «سكينة بنت الحسين» ص ١٢٦ : ط الهلا

فلم يهتم المؤرخون والنقاد بشيء منه إلا ما اتصل بالسياسة بسببٍ قَرُبَ أو بَعُدَ ...

ولا أحد يجحد أثر السياسة فى الشعر ، أو ينكر ما كان لبنى أمية من نصيب فى ازدهاره ورواجه ، ولكن المنكر حصر الأدب فى البلاط ، كأنه كل الدنيا .

* * *

ولم يكن هذا الذى أشرنا إليه من ضيق النظرة وانحصار الاهتمام فى أدب السياسة هو كل ما أصاب الأدبَ من شر ونكر ، بل أصابه منهما ما هو أفدح حين احتكمت موازين السياسة فى أقدار الشعراء ومقاييس الأدب ثم ظلت تسيطر على أذواق النقاد وتوجِّه أحكامهم :

البيت الأموى ، قد عين شعراءه الكبار : جريراً والفرزدق والأخطل، أمراء للشعر .

وجاء نقاد القرن الثانى ، فاعتمدوا هذا التعيين ، متأثرين بوضع القصر العباسى فى زمنهم ، وقد كان يحتكم فى أقدار الشعر على نحو ما كان القصر الأموى يفعل ، أو أكثر مما كان يفعل !

صنَّف « ابن سلام » — ت : ٢٣٢ هـ — طبقاته، فوضع هؤلاء الشعراء الثلاثة فى صدر الطبقة الأولى وجعل رابعهم « الراعى » لأن القصر أخَّرَه[١] .

وجاء « الآمدى : أبو القاسم الحسن بن بشر » فى القرن الرابع ، فأفرد الشعراء الثلاثة بالذكر ، وأبعد الراعى[٢] .

وإلى اليوم ، ما نزال نزن بذلك الميزان كأنما لا تفصلنا عن ابن سلام والآمدى قرون وقرون .

ولن شاء أن يقرأ كتب الأدب والنقد ، منذ عصر « ابن سلام » إلى اليوم ، فسيرى أن جريراً والأخطل والفرزدق ، فى موضعهم الأول لم يتغير . . .

وسيعرف القليل عن شعراء آخرين ، ممن اتصلوا بالسياسة من قريب أو بعيد. وقد أخملت هذه القلةُ المشهورة بضعَ مئات من شعراء ذلك العصر لم نُعْنَ

---

(١) طبقات ابن سلام : ١١٨ .

(٢) الموازنة : ٤ ط حجازى ١٩٤٤ .

بجمع تراثهم المبعثر فى ديوانى الحماسة : والشعر والشعراء ، والأغانى ، والكامل والجمهرة ، والأمالى ... لعلنا نرى فيهم غير ذاك الذى رآه من وضعوهم فى الظل ...

وهم يعترفون أن جريراً وحده غلب ثمانين شاعراً ، ثم لم يذكروا لنا من هؤلاء الثمانين غيرَ عددٍ لا يبلغ عشرة ، وأخملوا الباقين فأخملناهم خضوعاً لمشيئة زمان غير زماننا !

و« جرير » عندهم أمدحُ العربِ ببيت قاله فى مدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح[1]

وما نزال نردد هذا التقويم فى عقم وجدانى ، ونقدم لأبنائنا ، فى كتب الأدب المدرسية ، تلك الحائية نموذجاً مختاراً فى النصوص ، دون أن نشفق على أذواقهم ، وعلى تكوينهم الفنى ، بل دون أن نشفق على فهمهم لموضع الأدب والأدباء ، من مثل قول جرير فى هذه القصيدة مستجدياً متسولاً :

تعزَّت أم حـزرةَ ثم قالت ... رأيت الموردين ذوى لقـاح
تُعـلل وهى سـاغبة بنيهـا ... بأنفـاس من الشبم القـراح
أغثنى يا فـداك أبى وأمى ... بسَيْبٍ منك إنك ذو ارتياح !

ورائية الأخطل التى أطربت عبد الملك وأراد أن يكتب إلى الآفاق أنه أشعر العرب ، والتى احتفل بها قدامى النقاد أيما احتفال ، ما تزال حيث هى فى موضعها لم تتغير ، كأنما لا يصدمنا منها ما فيها من بذاءة هجاءٍ مُسف ، أتحرج من نقله هنا !

ولأن « كُثيِّرَ عزَّةَ » قد اتصلت أسبابه بالقصر الأموى وقال فيهم مدائحه ، تقدم على « جميل » الذى لم يتصل بالسياسة ولا مارس الفن الذى يرضى الحكام ، وإن يكن جميل — باعتراف النقاد — أبرع فنًّا وأصدق عاطفة ! لكنها إرادة السلطان اعتمدها النقاد فاحتل « كثير » مكانه عندهم فى الطبقة الثانية ، وتأخر « جميل » إلى الطبقة السادسة . وكأنما أراد « ابن سلام » أن يبرر الموقف فقال : « وكان لكُثير فى التشبيب نصيب وافر ، وجميل مُقدّم عليه فى النسيب

(١) ابن سلام : الطبقات ١٠٠ وفى (الشعر والشعراء : ١/٤٦٨) أن عبد الملك أجازه على هذه القصيدة الحائية مائة ناقة معها ثمانية من الرعاء !

وله فى فنون الشعر ما ليس لجميل ، وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كُثير يقول ولم يكن عاشقًا ، وكان روايةَ جميل » .

ثم لم يلبث « ابن سلام » أن جاء بنماذج من فنون الشعر الأخرى التى لكُثير فيها ما ليس لجميل ؛ وكلها فى مدح ملوك بنى أمية !

وبمثل هذا المدح ، فُتحت أمام « كثير » الأبواب وهان على « ابن سلام » أن يضعه فى الطبقة الثانية ويضع « جميلا » فى الطبقة السادسة . مع تقريره أن جميلا كان صادق الصبابة ، وكان كُثير يقول ولم يكن عاشقا .

بل وجد « كُثيِّر » من الأقدمين من يقول إنه أشعر الإسلاميين ، فيما نقلوا عن « ابن أبى إسحاق » الذى وصفوه بأنه « عالم ناقد ، ومتقدم مشهور »[١] .

ذلك « لأنهم مجمعون على أنه — أى كثير — أول من أطال المدح »[٢] .

أما « جميل » : « فما رأينا أحداً أطلق على كُثير أن جميلا أشعر منه ، بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل »[٣] .

ولم تشفع لجميل الأصالة الفنية المرتهنة بصدق المعاناة — وقد كان باعترافهم صادق الصبابة — لأن هذا الصدق الفنى ، لا حساب له فى بيئة لا يعنيها أن يقول الشاعر ما يجد ، وإنما الذى يعنيها أن يقول ما يرضى الساسة الحكام، وهم يعرفون « أن جميل بن معمر ما مدح أحداً قط ، إلا ذويه »[٤]

كما لم يشفع لذى الرمة ، «أنه كان أحسن الناس تشبيهًا،وأجودهم تشبيبًا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة » بل أخَّره عندهم عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع »[٥] .

وثالثة الأثافى ، مما أصاب الحياةَ الأدبية من نُكْرٍ ، أن موازين السياسة وحدها هى التى كانت تحتكم فى القيم الفنية للأدب ، وتسيطر على ذوق النقاد .

(١ ، ٢) العمدة: ١/٦٢ .
(٣) الآمدى : الموازنة ، ٧ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ١/٥١ .
(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١/٤١ .

فالفنون الشعرية التى أجازها السلطان ، كانت تحدد مجال الشعر وأغراضه عند من حصروا الدنيا بين جدران القصر .

فلأن الساسة كانوا يحتفلون بالمدح والهجاء ، وُجد من النقاد القدامى قوم يقولون : « الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ! »[١] .

ولأن شعراء القصر كانوا يصدرون فيما يقولون عن رغبة أو رهبة ، جاء نقاد فحصروا فيهما مثيرات الوجدان وبواعث النشاط الأدبى[٢] ! وقرر آخرون أن « الطمع أول دواعى الشعر »[٣] .

والرغبة عندهم ، لا تعنى غير الطمع فى عطاء ذوى المال ورضى أصحاب السلطان . بدليل أنهم حصروا مجالها الشعرى فى المدح والشكر أو كما قالوا : « فمع الرغبة يكون المدح والشكر »[٤] .

والرهبة فى حسابهم ، لم تكن تعنى سوى الخوف من سطوة حاكم أو غضب أمير ، بدليل حصرهم مجالها الشعرى فى الاعتذار والاستعطاف[٥] .

وإذا سمعتهم يقولون : « الفقر آفة الشعر » فلا تحسبهم التفتوا إلى جناية الطمع على فنية الشاعر ، حين يضطره إلى أن يقول ما لا يجد . ولا تظنهم قدروا إفساد الفقر للشعر ، حين جعل الشعراء مرتزقة مأجورين . وإنما الفقر آفة الشعر عندهم « لأن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو فى غنى وسعة نقّحها وأنعم النظر فيها على مهل . فإذا كان مع ذلك **طمعُ** غِنىً ، قَوِىَ انبعاثُها من ينبوعها . وجاءت الرغبة بها فى نهايتها محكمة . وإذا كان فقيراً مضطرًّا رضى بعفو كلامه ، وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطره ، ولم يتسع فى بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته ، فجاء دون عادته فى سائر أشعاره . وربما قصر عمن هو دونه بكثير »[٦] .

وفى مقاييسهم أن مدائح « الكميت » فى بنى أمية أجود من هاشمياته . مع تقريرهم أنه « كان يتشيع ، وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى »[٧] ولا يرى

---

(١) ابن رشيق : العمدة : ١/٧٨ .
(٢) ابن رشيق : العمدة : ٢/١٢٤ .
(٣) الشعر والشعراء : ١/٢٤ .
(٤ ، ٥) العمدة : ١/٧٧ .
(٦) ابن رشيق : العمدة ١/١٤٣ .
(٧) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٢٥

« ابن قتيبة » علة لجودة مدائحه « إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفسِ لعاجلِ الدنيا على آجلِ الآخرة » .

و« ذو الرمة » يؤخره عندهم عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع » على ما نقلنا من كتاب (الشعر والشعراء) .

كأنما كان القصور فى المدح والهجاء ، حيث يخون الطبع ، جريمةً لا تغتفر عند القوم !

وكأنما كان لا يكفيه أن يتفوق على كل الشعراء فيما يواتيه طبعُه عليه من فنون القول !

وبقى أن نسأل : أين عندنا موضعُ « ذى الرمة » وغيره من الشعراء الذين كانوا إذا صاروا إلى المديح خانهم الطبع ؟

هل تزحزحوا عن أماكنهم التى حددها لهم « ابن سلام » و « ابن قتيبة » فى العصر العباسى ؟

هل فكر دارس منا ، فى العناية بالتراث الفنى لغير شعراء السياسة ، ووزنه بمقياس غير ذاك الذى ورثناه من قدامى النقاد ؟

لا أدرى ، فهل من يدرى ؟

* * *

وأضلتهم مقاييسهم النقدية ، فلم يدركوا أن الصدق الوجدانى عنصر أصيل جوهرى فى الفن ؛ ولم يلتفتوا إلى أن الشاعر حين لا يقول عن طبع ويصدر عن وجدان ، فَقَدَ ما به قوامُ الأصالة الفنية« **فأعذب الشعر أكذبه** » عند من وصفهم ، قدامة بن جعفر بأنهم : « أهل الفهم بالشعر والشعراء قديمًا »[١] .

والآمدى يقول : « الشاعر لا يطالَب بأن يكون قوله صادقًا »[٢] .

ومن فضائل الشعر عندهم : « أن الكذب الذى أجمع الناس على قبحه

---

(١) نقد الشعر : ٢٦ .

(٢) الموازنة : ٣٩٥ .

حَسَنٌ فيه . وحسبك ما حسَّن الكذبَ واغتفر له قبحه » كما قال ابن رشيق القيروانى فى « باب فضل الشعر »[١] .

والغلو ميزة تُحسَب عندهم للشاعر ، كما قرر « قدامة بن جعفر »[٢] .

ومناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين ، مدحًا وذمًا ، غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك — عند قدامة — « يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها » ![٣]

ومداراة السلطان واجبة ، والتصدى لمعارضته حمق ، حتى لو كانت المعارضة دفاعًا عن مبدأ ، واستبسالاً فى سبيل عقيدة ؛ كالذى كان من الخوارج حين لم يروا الحكم إلا لله وحده ، فاستحقوا بذلك إغفالَ نقادٍ مثل «ابن رشيق» يقول : « **وأحمق الشعراء** عندى من أدخل نفسه فى هذا البابِ أو تعرض له — يعنى للسلطان — وما للشاعرِ والتعرض للتحوُّف ! وإنما هو طالبُ فضل، **فلِمَ يضيع رأس ماله** ؟ وكل شىء محتمل إلا الطعن فى الدول، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة، فتعصبُ المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه ، أصوبُ وأعذرُ له من كل جهة» ![٤]

* * *

---

(١) العمدة : ١/٧ .
(٢) نقد الشعر : ٢٦ .
(٣) نقد الشعر : ٤ .
(٤) العمدة : ١/٤٥ .

وبعد فماذا أردنا بكل هذا الحديث الطويل عن الشعر فى البيئة السياسية ؟ أردنا لنقول :

— إن الشعر ظل ، على العهد به منذ كان ، سلاحًا خطراً تحسب له الدولة الجديدة ألف حساب !

— إن شراء السياسة لألسنة الشعراء وضمائرهم ، دفع إليه أنها كانت فى أشد الحاجة إليهم ، يعبئون لها وجدان الجماهير ويوجهون الرأى العام .

وكان الشعراء يعرفون حاجة الدولة إليهم فيغالون فى بضاعتهم ، ويطلبون لها الثمن الغالى .

— إن الشعر سار مع الحياة ، فحين كانت القبيلة نظام المجتمع السائد ، كان الشاعر أداة نصرتها ، وعندما جاء الإسلام يجمع الأمة تحت لواء التوحيد ، كان الشاعر لسان هذه الدعوة عن عقيدة وإيمان ، ثم تطور الوضع بالمجتمع العربى بفعل دواع قهرية ، وأثرا لظروف ألجأت إلى تركيز السلطة ، بعد أن اتسعت الدولة بالفتوح الإسلامية وضمت شعوباً تفاوت ميراثها من نظم الحكم ، فوجد النظام الجديد فى « دمشق » عاصمة الدولة ، شعراءه الذين يدعون له وينصرونه ، عن رغبة أو رهبة . . .

— إن تصدع الوضع الاجتماعى بالتفرقة العنصرية ، والعصبية المذهبية والتمايز الطبقى ، تحت الحكم الفردى المطلق ، نشأ عنه انحراف فى خطير ، حين غلب أكثر الشعراء على وجدانهم وضمائرهم وألسنتهم ، فانساقوا — تحت ضغط الرهبة أو الرغبة — يقولون ما لا يجدون ، وشاع النفاق والتزييف الوجدانى ، والمبالغات المسرفة ، والدعاوى الباطلة . وبقدر ما كانت السياسة بمعزل عن الشعوب ، كان الأدب مسجلاً لتلك العزلة . فالذين وصلوا من الأدباء إلى حاشية السلطان ، كانوا ظلاً له وصدى ، ففتحت لهم مع أبواب القصور ، أبواب التاريخ الأدبى .

والذين عصمتهم قوة ضمائرهم وأصالة فنيتهم من الانسياق وراء التيار الجامح ، هبطت أسهمهم فى سوق القوم ، فضاع منهم من ضاع فى الغمار .

— إن القيم الأدبية ، للشعر وأصحابه ، خضعت لاحتكام الموازين المتأثرة بالتيار السياسى الغالب ، فوجهت ذوق النقاد الأولين ، وقد عاشوا فى مجتمع طبقى متصدع ، ثم تركت ميراثها يحتكم فى الأدب ، نتاجًا وذوقًا ، لمدى عصور وأجيال . . . .